يتغير هذا المجتمع ، وفي أي اتجاه ؟ من الذي يغير ؟ ان نمط شخصيات الروائي وشبكة علاقاته وتحديده للاطراف الداخلة في العملية الاجتماعية عن طريق اظهارها في نسيجه الروائي ، ان كل ذلك هو الذي يحدد لنا اتجاه تطور الراهن وتغيره موضوعيا عبر الحدود والاشارات الموجودة في الرواية . لكن لننتظر قليلا حتى نرى باقي الشخصيات في باقي روايات جبرا ابراهيم جبرا ، وعندها ربما نستطيع تحديدا أدق لتخوم واتجاهات العالم الروائي لهذا الكاتب ، هذا العالم الذي هو تمثل للعالم الواقعي من وجهة ، ومن موقع ايديولوجية المؤلف من ناحية ، وفي ظروف تاريخية محددة ومن خلال رؤية فكرية واجتماعية وجمالية محددة من ناحية اخرى .

٣ ــ « السفينة »

بين بيروت ونابولي تسافر السفينة اليونانية « الهركيوليز » في رحلة سياحية ، وعلى متنها شخصيات الرواية : الدكتور فالح حسيب وزوجته لمى ؛ وديع عساف الذي ستوافيه عشيقته الى نابولي ؛ عصام السلمان عشيق لمى ؛ اميليا عشيقة الدكتور فالح ، وشخصيات ثانوية اخرى كالدكتور محمود المسافر للتدريس في احدى الجامعات الاوربية .

« السفينة المسافرة » تعطي بعدا رمزيا هو عدم الاستقرار والبحث ، ان اهتزازها فوق الامواج هو الرمز لاهتزاز الشخصيات وفقدانها قاعدة صلبة تقف عليها ، لكن نوعية ــ ان لم نقل طبقة ــ الشخصيات التي تحملها السفينة او الرواية هي التي تعطي قلق الشخصيات مدلوله ، تعمقه أو تسطحه ، تعطيه بعده الانساني والرمزي او تحوله الى مجرد قلق مرفه (ان صح التعبير) فما هي نوعية شخصيات السفينة ، والى اي وضع اجتماعي تنتمي ، واي قلق هو قلقها ؟

كما في المسرح التقليدي ، وبحسب قواعد ارسطو تتحقق وحدة المكان في هذه الرواية ، فالشخصيات « محصورة » ضمن حيز ضيق هو سفينة في البحر ، وعلى ظهرها ، وكأنما لتروي الرواية ، او لتحققها ، اجتمعت الشخصيات التي عددنا ، والتي تجمعها كلها شبكة علاقة منسوجة من خيوط العشق أساسا . لقد اجتمعت هذه الشخصيات لا بمصادفة بل بترتيب هو اشبه ما يكون « مكائد العشاق » ، فعصام السلمان مهندس عراقي مسافر الى لندن ليلتحق بعمل جديد بعد ان « مل » العمل في بغداد ، على الرغم من دخله الوفير ومكتبه الهندسي المزدهر ، وقد قرر أن تكون رحلته نزهة ، وهكذا سافر بحرا ، فتعرف بذلك عشيقته لمى زوجة الدكتور فالح حسيب وتقنع زوجها بالسفر في الرحلة ذاتها . والدكتور فالح بدوره يقترح على عشيقته الايطالية اميليا ، التي تسكن في بيروت ، الذهاب على السفينة نفسها ، وللسبب نفسه يسافر الدكتور محمود الذي يعشق اميليا من طرف خفي .

هذه الشخصيات التي تربطها شبكة العشق هذه ، المسافرة في رحلة واحدة ، وضعها المؤلف في لحظة شبه درامية : اى في لحظة لقاء ومكاشفة بين بعضها البعض. ومن خلال هذه الرحلة ، وما يحدث على ظهر السفينة ، ينسج المؤلف روايته معتمدا اساسا على تقديم الشخصيات ، وعلى « اصوات » الشخصيات . فمن هي هذه الشخصيات ، وما هي سماتها واوضاعها ، وعلام تدل رحلة السفينة هذه ؟